

ثقافة العنف والحرب الأمريكية على العراق

د. محمد عبد العزيز ربيع

اتجه الكثير من المحللين السياسيين في الآونة الأخيرة إلى الحديث عن توجهات الشعب الأمريكي إلى معارضة الوجود الأمريكي العسكري في العراق، وإلى القول بأن التورط في العراق يشبه التورط في فيتنام في الستينات والسبعينات من القرن الماضي. وحيث أن معارضة الشعب الأمريكي للحرب في فيتنام كانت قد بدأت بالتلملم قبل أن تتحول إلى مظاهرات صاخبة وهروب واسع من الخدمة العسكرية، فإن البعض يعتقد أن بوادر العصيان الأمريكي ضد الحرب في العراق قد بدأت في الظهور، وأن من المتوقع أن تتنامى قوى المعارضة وتشكل عامل ضغط قوي يجبر الإدارة على الانسحاب. لكن مثل هذه الاستنتاجات لا يمكن أن تكون صحيحة إلا إذا كانت دوافع الحرب في الحالتين واحدة أو شبه متطابقة، وأن ظروف الحياة الأمريكية في أيامنا هذه شبيهة بظروف الحياة إبان الحرب في فيتنام.

إن الافتراض بتشابه ظروف ومعطيات حياة الستينات من القرن الماضي بمثيلاتها في عام 2007 يلغي كل ما عاشته أمريكا والعالم من تغيرات على مدى الفترة الممتدة بين الحربين. إن مما لا شك فيه أن الظروف الحالية تغيرت كثيرا، وأنها لم تعد تشبه الظروف السابقة، ولذا يصبح التنبؤ بتكرار الموقف الأمريكي من الحرب الفيتنامية وهما لا يجوز الاعتماد عليه وبناء نظريات وسياسات على أساسه. وبالرغم من أنني لا أعتقد أن الشعب الأمريكي سيسكت طويلا على ما يجري في العراق اليوم، لكنني، ولأسباب كثيرة، لا أعتقد أن الأمريكيين المعارضين للحرب العراقية سيقفون نفس المواقف التي ميزت المعارضة ضد الحرب الفيتنامية. ولذا ليس من المتوقع أن يقوم معارضو الحرب على العراق بتنظيم الاحتجاجات والمظاهرات الصاخبة والتسبب في توقف الحرب والانسحاب من العراق. إلى جانب ذلك، لا بد من إدراك أن مصالح أمريكا في منطقة الخليج الغنية بمواردها النفطية تختلف من حيث النوعية والأهمية عن المصالح الأمريكية التي دفعت إدارة الرئيس كينيدي إلى شن الحرب الفيتنامية، ودفعت من بعده إدارتي الرئيسين جونسون نيكسون إلى مواصلتها حتى منتصف السبعينات من القرن الماضي تقريبا.

وعلى الرغم من صعوبة التكهن بما يمكن أن تؤول إليه الأمور في الشهور القادمة، خاصة في ظل تطور الأحداث بسرعة على الأرض، وتبدل مواقف الرأي العام تحت ضغوط الحملات الإعلامية، إلا أننا نعتقد أنه ليس من المحتمل أن تتسع نشاطات المعارضة الأمريكية وتنبلور مواقفها بالمقدر المطلوب وبالصلابة المطلوبة لإجبار الإدارة على الانسحاب من العراق. ويعود السبب في ذلك لفعل عدة عوامل داخلية وخارجية، منها: وجود قناعة شعبية راسخة بأن أمريكا مصالح حيوية في منطقة الخليج، وأنه ليس بالإمكان أو من الحكمة التخلي عنها، وأن الفشل العربي في خلق صورة حضارية للعرب والمسلمين جعل من الصعب على الأغلبية العظمى من الأمريكيين التعاطف مع ضحايا الحرب من العراقيين والمسلمين عامة.

من ناحية أخرى، تسبب نظام التجنيد الإجباري الذي ساد أثناء فترة الحرب الفيتنامية في دفع الآلاف من شباب أمريكا للتهرب من الخدمة العسكرية. أما وقد الغي ذلك النظام منذ عقود بقرار من الكونجرس لصالح الخدمة التطوعية، فإن مخاوف الشباب انتهت تماما. وهذا يعني أن الشباب والطلاب الجامعيين الذين قادوا المظاهرات ضد الحرب الفيتنامية لا يتعرضون اليوم لخطر التجنيد والزج بهم في أتون حروب خلافا لرغباتهم وعلى حساب دراستهم. إلى جانب ذلك، أصبحت الغالبية العظمى من المتطوعين للخدمة العسكرية اليوم من أبناء الأقليات العرقية والثقافية التي تعيش أوضاعا حياتية سيئة بشكل عام، وأن شباب تلك الأقليات ينظر إلى الخدمة في الجيش باعتبارها أفضل الفرص المتاحة أمامهم،

في مجتمع يمارس التفرقة ضدهم، للحصول على دخل جيد وتقاعد مجزي وامتيازات أخرى تمكنهم من العيش حياة كريمة بعد الخدمة.

إن من الأمور المعروفة أن ثقافة الشعب الأمريكي، ومنذ وصول المهاجرين الأوائل إلى تلك القارة قبل حوالي الخمسمائة سنة، كانت قد اتجهت إلى الحث على ممارسة العنف وتمجيده. ولقد استمرت تلك الثقافة بالعمل على تأكيد ذاتها وترسيخ مفاهيمها، مما جعل ضحايا العنف في أمريكا تتجاوز بمرات ضحاياه في المجتمعات الغربية الأخرى. وبالرغم من تسرب العنف إلى المدارس والجامعات، وتعدد الدراسات التي تدعو إلى تغيير ثقافة العنف، إلا أن صناعة الأفلام والبرامج التلفزيونية الألعاب، وحتى الدعايات التجارية لا تزال تركز على العنف كوسيلة لتسويق منتجاتها.

حين تسلم الرئيس ريجان مقاليد الحكم في عام 1981 اتجه إلى رفع شعار جديد يقول بالتفاوض من خلال القوة، مما جعل ثقافة القوة المرتبطة بالعنف تصبح جزءاً من الثقافة السياسية. وفي أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتي ادعى المحافظون أن القوة كانت الأداة التي أدت إلى سقوط الماركسية فكراً وممارسة ومؤسسات. بعد ذلك، جاءت مقولتنا نهاية التاريخ وصراع الحضارات، لتقولاً إن الديمقراطية والرأسمالية تجسد المحطة الأخيرة للتاريخ، وأن الغرب الرأسمالي الديمقراطي في صراع مع الشرق الإسلامي والصيني، وأن القوة هي الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الحضارة الغربية وحماية طريقة الحياة الأمريكية.

إن المجتمع الأمريكي، وبحكم ثقافته القديمة الجديدة، لا يقف ضد الحرب بل ضد الهزيمة. إن العقلية الأمريكية عامة تقوم على مبدأين رئيسيين: تعظيم الفوائد حين يكون الربح ممكننا، وتقليص الخسائر حين تكون الخسارة حتمية. وهذا يعني أن المعارضة الشعبية المتواضعة للحرب على العراق تنبع من الخوف من الهزيمة والخسارة وليس من التعاطف مع ضحايا الحرب وضد مبدأ القتال والعنف. فلو كانت القوات الأمريكية تكسب الحرب اليوم لما وجد في أمريكا من يعارض الحرب حتى وإن ارتفعت خسائرها البشرية.

إن الأمريكيين يعتقدون بأنهم حملة رسالة إنسانية، وأن حملة الرسائل عبر التاريخ كانوا أكثر تضحية وأكثر ميلاً لاستخدام العنف لنشر رسالتهم بين البشر. ولذا فإن الأمريكيين الذي يحملون رسالة الديمقراطية، ويلتزمون بحماية مصالح بلادهم الحيوية، وجدوا أن الهيمنة على الآخر هي ويسلتهم لتحقيق أهدافهم وهزيمة خصومهم، وأن الاعتراض على الحروب يكون فقط حين تكون الهزيمة شبه مؤكدة والتضحيات الأمريكية أكبر من المكاسب المشكوك فيها.

professorrabie@yahoo.com

د. محمد عبد العزيز ربيع
للنشر يوم الثلاثاء 30-1-2007